

أدب الرحلات عبر القرون المختلفة

دراسة تاريخية

حافظ عبد الرحيم*

تمهيد

من أهم وظائف الأدب أن يعكس تجربة الأديب، يصورها لنستمع بها، أو لتتصادى في نفوسنا بما تداعب به عواطفنا وأفكارنا ومخيلتنا. من هنا تروق لنا كتابة السيرة والسيرة الذاتية وأدب المذكرات والرحلات وما شابهها، مع أن بعضنا يرى فيها كشفًا خاصًا لا مبرر له، ناسين أن الكشف الذاتي هو أصلاً وقبلًا من مقومات الأدب وأسسها. ومنذ أن درست أيام طه حسين و حياة أحمد أمين تابعت الكتابات الذاتية، والرحلات فكنت أعايش وأرافق، وأسافر إلى البلاد العربية وغيرها...، كما قمت بكتابة "رحلتي إلى الأردن" أثناء سفرى نحو المملكة الأردنية الهاشمية سنة ٢٠٠٤م-٢٠٠٥م، على منحة دراسية التي قدمها مجلس التعليم العالى الباكستانى لما بعد الدكتوراه فى اللغة العربية ؛ (إجازة التفرغ العلمى) لاستضافة جامعة البلقاء التطبيقية ، كلية أصول الدين الجامعية عمان.

وكانت الصحافة العربية تنشر فى الستينيات والسبعينيات انطباعات عن رحلات معينة هنا وهناك، فكان بعض كتابنا يقدمون مادة سائغة وشائقة. فأين تجد مثيلاً لمذكرات الأستاذ سليم نحاس بعد تقاعده؟ وأين تجد أسلوباً كأسلوب الصديق محمد على طه فى انطباعاته عن رحلة قام بها هو ونييه القاسم إلى تونس؟

وقد روى إلادريسى ١١٠٠-١١٦٥ فى نزهة المشتاق عن فتية من شباب لشبونة توغلوا فى بحر الظلمات وحكاية ما جرى لهم فى الجزائر البعيدة ومع الشعوب الغربية.

ولكم رحلات ماركو بولو (١١٤٥-١٢١٧) وابن بطوطة (١٣٠٣-١٣٧٧) وابن جبير (١١٥٤-١٢١٧)، وابن فضلان (٩٢١م) فما زادنا ذلك إلا إحساساً بقيمة هذا اللون

الأدبی لما فيه من وصف وحکایة وتشویق وإثارة. فما أحوج صحافتنا المحلية - هذه الأيام - إلى تحفيز هذا اللون، فتنشر المقالات مصحوبة بالصور، وبالطبع تكون مشفوعة بالعبر. كذلك یحث الإسلام على الرحلة، ویدعو إلى السفر والسیاحة فی الأرض، طلباً للعلم والمعرفة، والتفقه فی الدین، مما جعل السفر تراثاً یتصل بالتاریخ الإسلامی لدى جمیع الشعوب الإسلامیة "الأرض لله" وطبقاً للأمر القرآنی: (سیروا فی الأرض) بدأ المسلمون فی السفر هنا وهناك، وازدهرت الرحلات فی عصر ما بعد الفتوحات الإسلامیة، ونشطت باتساع رقعة العالم الإسلامی وما حوله جنباً إلى جنب مع ازدهار الفكر وتنوع منابع المعرفة.

أهمية أدب الرحلات:

وللرحلة أهمية علمية وأدبية، فأدب الرحلة هو النمط الأدبی الوحید الذی له علاقة وطیدة بجمیع العلوم الاجتماعیة تقریباً، وقد استفاد من هذا النمط الأدبی المؤرخون کتاب السیر، وعلماء الجغرافیا، إفادة کبیرة، ولهذا السبب احتل أدب الرحلة فی جمیع لغات العالم مكانة عالیة، ومن الناحیة الأدبیة یرى البعض أن الرحلات من أهم فنون الأدب، ویخصون بالذكر الأدب العربی لسبب بسیط هو طبقاً لرأى الدكتور شوقی ضیف " أنه خیر رد على التهمة التى طالما اتهم بها هذا الأدب .. أى تهمة قصوره عن فن القصة (١) -

وكتب الرحلات تقدم قصصاً وحکایات، یکون البعض حقیقیات، ویکون البعض الآخر من نسیج الخیال ویهمنا هنا أن نذكر أن الجغرافیین العرب والمسلمین، اتبعوا طریقة ممتعة فی وصف عالمهم والعوالم المحیطة بهم، إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها، وما بدیارها من آثار وعجائب، وقصوا ما عندها من أساطیر وخرافات، وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافیة كتباً أدبیة (٢) كما أنه یمکن للدارسین استخلاص مادة لما یطلق علیه الیوم التراث الشعبی، سواء کان ذلك فی رحلات الواقع أو رحلات الخیال (٣)

دواعی الرحلة وأسبابها واهتمامات الرحالة:

حث الإسلام كما ذكرنا على السفر، وشجع علیه بالتخفیف على المسافر فیما یتعلق

بالصوم والصلاة، فانطلق الرحالة هنا وهناك ساعين في طلب العلم والاستفادة من العلماء، وأتاحت الفتوحات للمسلمين وسائل السفر في البلاد المفتوحة، وهيات أسبابه، خاصة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في آسيا وأفريقيا وأوروبا، كما كان للحج أثر واضح في تشجيع الرحلات، وكثيراً ما كان القيام بفريضة الحج نقطة انطلاق للرحالة الحاج، يندفع بعدها إلى السفر في البلاد المختلفة، وتفقد عادات أهلها واستقصاء أحوالهم، وبالإضافة إلى نشر الإسلام وأداء فريضة الحج كانت هناك عوامل مساعدة على الرحلة كالتجارة ونقل البريد وجباية الخراج وما إلى ذلك (٤) -

هذا بالإضافة إلى اشتغال الكثير من الرحالة بالعلم والتعليم، وتولى البعض الآخر وظائف حكومية، ويشير الدكتور حسين نصار إلى أمر هام وهو أن شخصيات الرحالة كانت من العوامل التي دفعتهم إلى الأسفار (٥) - ضافة إلى إيمانهم بفائدة الرحلة (٦) -

أقسام الرحلات:

وقد قسم البعض الرحلات إلى أقسام عديدة وصلت أحياناً إلى خمسة عشر قسماً (٧) - إلا أنه يمكن تقسيمها إلى أقل من ذلك فهناك رحلات دينية كرحلات الحج ورحلات الدعوة والتبليغ، ورحلات اقتصادية بهدف التجارة، وبهدف العمل خارج الوطن، أو جمع تبرعات لأهداف دينية كما حدث عندما سافر بعض مسلمي الهند لجمع التبرعات وتسليمها للدولة العثمانية، ورحلات علمية الهدف منها طلب العلم وهو سبب من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للرحلة، ومن المعروف أن العلوم النقلية تفرض على مبتغيها الرحلة إلى منابعها، وهذا ما دعاه معظم علماء شبه القارة الهندية إلى السفر إلى مواطن العلم في بلاد المسلمين، وهذا نفسه ما دفع بعدد من المغاربة إلى الرحيل تجاه المشرق لطلب العلم دون أن يستهدفوا الحج أو التجارة (٨) -

أما الرحلات الإدارية والسفارية فهي رحلات رسمية يقوم بها أفراد أو جماعة، لتحقيق هدف ما بناءً على طلب من إدارة الدولة أو الحاكم، وبعضها يكون واضح الهدف وبعضها يكون

غير واضح بهدف التجسس وبعضها بفرض الهروب بسبب الاضطرابات السياسية والخوف من التعرض للقتل أو الأذى وهذا ما دفع بعض علماء الهند إلى الترحال عن ديارهم، والقُدوم إلى الجزيرة العربية، لأداء فريضة الحج ثم الإقامة الدائمة .

وتبقى الرحلات الشخصية التي يقوم بها أشخاص حبا منهم في السفر والترحال ، ورغبة في التمتع بالحياة ، أما الرحلات التموينية فهي قليلة إلا أننا نجد لها مثالا في الحالات في الأدب الأردى فقد حدث أن أعلن بعض أهالى شبه القارة الهندية أنهم يريدون السفر للحج ، بينما كانوا حقيقة يريدون بالإضافة إلى هذا تنظيم صفوفهم ، ودعم قوتهم دعما معنويا ودينيا ، ثم العودة إلى الهند لمحاربة الكفار ، كما حدث لرفاق المجاهد الكبير سيدا أحمد بريلوى شهيد (٩) -

وأخيرا الرحلة الخيالية التي كتبها بعض الأدباء ممن لم تتوفر لهم ظروف السفر إلى مكان ما ، فتخيل الأديب نفسه مسافرا أو تخيل غيره مسافرا إلى هذا المكان ، و محمد إقبال كتب في هذا النوع نظما فقد كان يتوق إلى السفر إلى الأراضى المقدسة ، ولكنه لم يتمكن ، فجاءت بعض أشعاره تتضمن رغبته وتقص حكاية سفر أحد المسلمين القادمين من بخارى وهو طريقة من مكة إلى المدينة (١٠) -

تدوين الرحلات وعناصرها :

وصلت أخبار بعض الرحلات ، أو موجز لها أو مقتطفات منها اكتفى أصحابها بروايتها شفاهاً ، كما تناثرت أخبار بعض الرحلات ضمن كتب دونها أصحابها في كتبهم العلمية ، أو دونوا نتائج هذه الرحلات فقط، (١١) - وكان تدوين الرحلة نتيجة لعدة أسباب منها تلبية طلب حاكم أو صديق أو قريب ، أو حرص الرحالة نفسه على إفادة القراء مثلما هو الحال في الرحلة الحجازية ، هذا بالإضافة إلى حرص الرحالة على التاريخ والتعريف بالبلدان أو بقضايا علمية والبحث على الترقى .

وهذه الأسباب كلها نجدها لدى من كتبوا رحلاتهم من أدباء الأردية وعلماء شبه القارة

الهندية الباكستانية . وقد دون الرحالة مشاهداتهم بطرق مختلفة ، فهناك من قام برحلة واحدة ، وهناك من قام بأكثر ، وقام أحدهم بتدوين رحلته في كتاب ، وقام آخر بتدوين رحلاته في كتاب أو خص كل رحلة في كتاب وهناك من دونها في حلقات نشرت على مدار شهور أو سنة في مجلة أدبية أو جريدة يومية .

ودون الرحالة مشاهداتهم أو ملاحظاتهم مسهبة أحيانا وموجزة أحيانا ، أثناء قيامهم برحلاتهم أو بعد عودتهم منها ، وأعاد بعضهم تهذيب ما كتب قبلا . كما أن البعض لم يكتب عن رحلته إلا بعد فترة طويلة . وقد استخدم معظم رحالة شبه القارة كتباً مساعدة أثناء تدوينهم للرحلة وخاصة في حديثهم عن الأمور التاريخية التي تتعلق بالأماكن التي يزورونها .

وهناك رحالة لم يدونوا رحلاتهم بل قام بتدوينها أحد مرافقيهم ، كما حدث بالنسبة لرحلة المودودي "رحلة في أرض القرآن" ، فقد دونها رفيقه في الرحلة عاصم حداد ، وكذلك رحلة أمير بهاولبور إلى الجزيرة العربية سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م ، ورافقه فيها عدد كبير من رجال بلاطه ، ومنهم شاعر البلاط أبو الأثر حفيظ جالندهري ، ومولوى محمد عزيز الرحمن رحيم يارخان المشرف على المتحف السلطاني ، وهو الذي قام بكتابة الرحلة بعنوان "في حضن بيتك يا الهى الكل سواسية" كما نشير إلى أن رحلة سيد أحمد شهيد إلى الجزيرة العربية وردت ضمن كتاب عن سيرته (١٢) -

وقد اعتمد الرحالة بالإضافة إلى المشاهدات العينية على ما سمعوه من أخبار ، وكذلك على مطالعة الرحلات السابقة لمنطقة بعينها ، وعلى مطالعة كتب الجغرافية والتاريخ ، وكتب المعارف الأخرى ، والرحالة الذين كتبوا بالأردية يشيرون في معظم الأحيان إلى مصادر معلوماتهم ، والمثال الواضح على هذا رحلة "الدكتور الحاج" محمد شجاع ناموس إلى الأراضى المقدسة التي "اكتظت بالمعلومات التي أشار إلى مصادرها ، وكذلك بالصور والخرائط فقد رغب الكاتب ، وهو باحث وعميد كلية ، أن تكون رحلته رحلة علمية موثقة كأي بحث علمي (١٣) -

وفيما يتعلق بعناصر الرحلة ، فأغلب الرحلات تبدأ بمقدمة ، يتضح منها العنصر الديني

كالتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتشهد وما إلى ذلك ، ويتحدث الكاتب بعدها عن الظروف التي دفعته إلى القيام بالرحلة وتدوينها والأمور التي اعتنى بها ، والمنهج الذي سلكه في تدوين الرحلة ، ويلى ذلك الأمور الجغرافية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، طبقا لاهتمامات الكاتب ، كما ذكر الدكتور سمير عبد الحميد نوح في كتابه "الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردى ، فليراجع إلى ذلك بالتفصيل.

وتتضمن ذكر الأمور الجغرافية الطبيعية ، ووصف الطرق والمدن والمرافق وغيرها ، وكذلك الظواهر المناخية والثروات الطبيعية بكافة أنواعها ، بينما الأمور الاجتماعية التي تلقى عناية هامة من الرحالة تتضمن الحديث عن البشر وفئات وطبقات المجتمع ، ولغات الشعوب ، ووضع الرجال والنساء فى المجتمع وغيرها . أما الأمور الثقافية فتتضمن الحالة العلمية فى البلاد ، وذكر العلماء والأدباء والمدارس وحلقات الدرس والأدب وما إلى ذلك ، وفيما يتعلق بالأمور الاقتصادية فتشمل الكتابة عن النظم الاقتصادية والمراكز التجارية والأسواق والزراعة والصناعة وما إلى ذلك (١٤) -

لغة الرحلة :

لاشك أن بعض الرحالة كانوا من الأدباء ، فساد الطابع الأدبى كتاباتهم ، وزخرت مادة رحلاتهم بالعناصر الأدبية ولهذا درج الكتاب العرب على استخدام عبارة "أدب الرحلات للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين (١٥) -

كانت مقدمة الرحلة عادة وبخاصة فى العربية تصاغ بلغة تختلف عن لغة الرحلة ذاتها ، فهى تصاغ بلغة أدبية . أما لغة الرحلة ذاتها فهى بلغة سهلة سلسة تكاد تقترب من لغة الحديث اليومية ، إلا أنه فى اللغة الأردنية يختلف الأمر نظرا لطبيعة اللغة ذاتها ، ونظرا للفترة الزمنية التى ظهر فيها هذا الفن ، فصدرت رحلات بالأردنية على مستوى أدبى رفيع ، ضمنها كاتبوها الأشعار ، وأدمجوا فى سياقهم آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية التى ربما احتاجوا إليها للتعليق على موقف أو الفصل فى قضية ما ، وكما هو فى العربية قد تغلب المشاعر الفياضة على

بعض الرحالة والأدباء منهم بخاصة ، فتأتي لغتهم رقيقة المستوى عظيمة التأثير والامتع، (١٦) - وقد أشار كراتشوفسكى إلى أنه كثيرا ما يكون أسلوب الرحلة على مستوى عال من الفن والصياغة الأدبية، (١٧) - ويذكر الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه الرحالة المسلمون (١٨) - أن القيمة الأدبية فى الرحلات تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى ، وعلى كل حال فمعظم الرحالة المؤلفين كانوا كتابا وأدباء مما جعل كتاباتهم تصل إلى مرتبة النثر الفنى فى أغلب الأحيان ، وهذا ما نلاحظه بوضوح فى أدب الرحلة فى اللغة الأردية .

وقد استبعد الدكتور حسين نصار عن مجال هذا الفن أربعة أنواع من الرحلة :
الرحلات التى كتبها العلماء للترود من العلوم التى تخصصوا فيها مثل الجغرافيا والتاريخ والصيدلة وغيرها ، والرحلات التى كتبها رجال البريد والحكومة غالبا ، لإبانة الطرق والمسالك بين الممالك ، عدا بعض الاستطرادات الشخصية . وكذلك الأجزاء التى وصف فيها الرحالة الطرق والعمائر وما ماثلها وصفا مباشرا يهدف إلى التعريف بها فقط ، وما شابه ذلك من رحلات، (١٩) وحدد الدكتور حسين نصار الأنماط الأدبية وأجملها فيما يلى :

- تقارير رحلات السفر بعامة
 - الرسائل التى تمثلت فى الرحلات والرحلة بمعناها الدقيق (٢٠) -
- وعلى كل حال فهذه موجودة بكثرة فى الأدب الأردى .

الرحلات فى التاريخ الإسلامى :

نشطت الرحلات فى فترة ما بعد الفتوحات الإسلامية نظرا لاتساع رقعة العالم الإسلامى ، وازدهار الفكر وتنوع منابع المعرفة ، ولم يكتب الرحالة الأوائل أخبار رحلاتهم فى مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرا ، فقد وردت هذه الرحلات فى كتب التاريخ أو تقويم البلدان ، وما كتب بين القرن الثالث الهجرى عن الرحلات كثير جدا، وبعدها حدث ما يشبه الكساد ثم ازدهرت الرحلة فى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩) فى وقتنا هذا (٢١) -

لمحة تاريخية عن الرحلات

ونرى من المفيد الإشارة إلى أهم الرحلات طبقاً للترتيب الزمني :

الرحلات في القرن الثالث الهجري :

- رحلة سلام الترجمان وهي رحلة تكليفية من قبل الواصل بالله إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧ هـ وقد عهد الخليفة بالمهمة إلى سلام الترجمان لأنه كان يتكلم ثلاثين لساناً (٢٢)-
- رحلة ابن موسى المنجم وهي رحلة استطلاعية رسمية من قبل الخليفة الواصل بالله أرسل فيها محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم .
- رحلة سليمان السيرافي وهي رحلة تجارية قام بها سليمان السيرافي من بلدة سيراف على ساحل الخليج العربي إلى الهند والصين واشتملت الرحلة على معلومات ومعارف .
- رحلة ابن وهب القرشي إلى بلاد الصين .
- رحلة اليعقوبي في البلدان الإسلامية : أرمينيا وفارس والهند والجزيرة العربية، وبلاد الشام والمغرب والأندلس وضمن رحلته كتابه "البلدان . "

الرحلات في القرن الرابع الهجري :

- رحلة ابن فضلان وهي رحلة رسمية من قبل الخليفة المقتدر بالله ، وكان الخليفة قد أرسل ابن فضلان على رأس وفد إلى ملك الصقالبة ليفقهه في الدين ، بناء على طلبه ، ووصل الوفد هناك عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م بعد رحلة استغرقت في الذهاب أحد عشر شهراً .
- رحلة المسعودي ، الأديب المؤرخ الجغرافي الرحالة ، إلى فالرس وكرمان ثم ملتان وسرنديب ومدغشقر وعمان وذلك عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م وفي سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م ارتحل إلى أذربيجان وجرجان ثم منها إلى الشام وفلسطين وفي سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م عاد إلى إنطاكية والثغور الشامية ، واستقر في مصر سنة ٣٤٥ هـ ٩٥٦ م .
- رحلة ابن حوقل وهي رحلة جغرافية علمية طاف فيها الرحالة العالم الإسلامي لثلاثين سنة وبعدها كتب كتابه الشهير "المسالك والممالك . "

- رحلة المقدسى : رحلة جغرافية فى ربوع العالم الإسلامى وردت باسم "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم".
- رحلة أبى دلف وهى رحلة رسمية من قبل الأمير السامانى نصر بن أحمد إلى الصين حوالى سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م الرحالة أديب وشاعر .
- رحلة الفتية المغررين ، رحلة جريئة فى بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) قام بها بعض الفتية من الأندلس ، وقد ذكر الإدريسى الرحلة فى كتابه "نزهة المشتاق "، ويرى د . شوقي ضيف أنه ليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلا (٢٣)-.
- الرحلات فى القرن الخامس الهجرى :
- رحلة البيرونى الذى عاش فى بلاط السلطان محمود الغزنوى سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م وكتب عن رحلته (٤٠ سنة) إلى الهند "تحقيق ما للهند من مقولة فى العقل أو مرذولة . "
- الرحلات فى القرن السادس الهجرى :
- رحلة الإدريسى الذى ولد فى سبته ، وتعلم فى قرطبة ، وتجول فى أسبانيا وشواطئ فرنسا والبحر الأبيض المتوسط والمغرب وآسيا الصغرى حتى وصل إلى صقلية ليكتب بعدها عن رحلته "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . "
- رحلة أبى جبير :سافر من طريق سبته إلى الاسكندرية والقاهرة والبحر الأحمر ومكة المكرمة ثم إلى العراق ، ومنها إلى حلب ودمشق وعكا وصقلية وغرناطة سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ثم عاد إلى الشرق بعد أربع سنوات ، وتوفى فى الإسكندرية .
- رحلة أبى حامد الغرناطى إلى إفريقيا الشمالية وشرق أوروبا والشام والعراق ومصر والفولقا وبلاد الخزر والبلقان ، وقد سجل مشاهداته فى كتاب أسماه " :تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب(٢٤)-.
- رحلة أسامة بن منقذ و كان مجاهدا ضد الصليبيين وأديبا وشاعرا ، دون رحلته بين مصر وسوريا والعراق فى كتابه " :الاعتبار "الذى كتبه عن الصليبيين (٢٥)-.
- رحلة الهروى :وهو على بن أبى بكر الهروى الذى ساح فى ربوع العالم الإسلامى ،

ودون رحلته في كتابه " :الإشارات في معرفة الزيارات "اهتم فيه بوصف المساجد والأبنية والعمائر والآثار .

الرحلات في القرن السابع الهجري :

- رحلة عبد اللطيف البغدادي ، وهي رحلة ثقافية طاف خلالها ربوع الشام ومصر ، وكتب عن رحلته في كتابه " :الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر " ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الكتاب طرفه من طرف كتب الرحلات ، فصاحبه كان ناقدا بصيرا وعالما فيلسوفا .(٢٦)-

- رحلة ياقوت الحموي .الذي رحل في سبيل التجارة من حلب إلى خراسان ومرو وخوارزم ، وتراجع أمام زحف جنكيز خان إلى الموصل فحلب ، وألف كتابه الشهير " :معجم البلدان. "

- رحلة ابن سعيد المغربي :رحلة ثقافية دينية بدأت بالرحلة إلى الحج عن طريق الاسكندرية فالقاهرة (4 سنوات) ثم حلب ودمشق والموصل والبصرة وبغداد ، ثم حج إلى مكة وعاد إلى المغرب وارتحل ثانية إلى الشرق ، فوافاه الأجل في دمشق عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م وكتب مشاهداته في " النفحة المسكية في الرحلة المكية " (٢٧)-

- رحلة العبدري وهي رحلة جغرافية صدرت في كتاب بعنوان "الرحلة المغربية " وكان الهدف الأساس منها الحج .

- رحلة التيجاني ، وهي رحلة للحج عاد صاحبها التيجاني إلى تونس بعد 32 شهرا من السياحة في البلاد العربية .

الرحلات في القرن الثامن الهجري :

في هذا القرن بلغت الرحلات ذروتها من حيث الغنى والانتساع ، وكتبت رحلات كثيرة إلا أن رحلة ابن بطوطة التي استغرقت ثمانية وعشرين عاما هي الرحلة الشهيرة في هذا القرن ، وقد بدأها ابن بطوطة من مسقط رأسه طنجة ، ووصل إلى بلاد الصين ، وحج خلالها أربع مرات ، وأمضى في فاس الأعوام الأخيرة من حياته (٢٨)-

الرحلات في القرن التاسع الهجري :

اشتهر في هذا القرن رحالة كثيرون أمثال الظاهري ، والملك قايتباي ، ويونس الإفريقي (٢٩) - ورحلته الأولى رحلة تجارية علمية ، ورحلته الثانية رحلة عسكرية إلى سوريا وقد سجل له أحد كتابه الرحلة في كتاب بعنوان "القول المستطرف في رحلة مولانا الملك الأسرف" (٣٠) -

الرحلات بعد القرن التاسع الهجري :

وبعد القرن التاسع الهجري تراجع أدب الرحلة بسبب الضعف والجمود والانقسام وتردى أحوال العرب والمسلمين ، وهكذا لم تصلنا غير أخبار قليل من الرحلات مثل "ماء الموائد" لعبد الله المراكشي العياشي عن رحلته إلى مكة ، ورحلة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي إلى مصر والقدس وبغداد ، ورحلة علي الجبيلي اللباني الذي زار اليمن والحجاز والهند وإيران والعراق ، صاغ رحلته شعرا (٣١) -

وبعد فترة الجمود والتفكك تطور الغرب في أوروبا ، وحاول العالم الإسلامي الخروج من قوقعة الانغلاق ومن هنا شكلت الرحلة دورا رئيسا في محاولات كشف العرب والمسلمين لأوروبا في ثوبها الجديد .

فبدأت فترة أخرى نشطت فيها الرحلة سواء لدى العرب أو لدى غيرهم من المسلمين كما هو الحال لدى مسلمي الهند ، وكان هدف الرحلة إلى داخل العالم الإسلامي وأيضا إلى خارج حدود العالم الإسلامي ، إلى أوروبا خاصة ، بدءا من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، كان الهدف الكشف عن سر تقدم الأوربيين ، والتدبر في أمر ما يمكن أخذه عنهم ، بما يساعد الأمة الإسلامية على النهوض من كبوتها ، والاستيقاظ من غفوتها الطويلة بهدف مواكبة العصر الحديث (٣٢) -

ومع تطور المواصلات اتخذ أدب الرحلة أسلوبا جديدا في العصر الحديث فلم تعد الرحلة تستغرق سنوات أو شهورا بل تقلصت ، وربما استغرقت أسبوعا أو أقل إلا أن قلم الأديب يستطيع أن يعبر عن رحلته القصيرة ، ومشاهداته ومشاعره ، ومن هنا صار هذا الفن من فنون

الأدب المقروءة .

أدب الرحلات فى اللغة الأردية:

كذلك برز أدب الرحلات فى اللغة الأردية، وهنا نذكر أن الأدب الأردى أيضا ، قد تضمنا ترجمة عدد من الرحلات التى قام بها رحالة غير عرب إلى مناطق مختلفة من العالم ، وهذا من شأنه أن يثرى الأدبين معا ، ونذكر ما كتبه الشاعر الهندى أبو طالب خان عن رحلته إلى العراق وأوربا (عاش ما بين سنة ١٧٥٢ م ١٨٠٦ م) وترجمت رحلته عن الفرنسية إلى العربية (٣٣) - ورحلة أخرى قامت بها "آن بلنت " إلى الجزيرة العربية وهى بعنوان رحلة إلى بلاد نجد ، وقد ترجمها إلى العربية محمد أنعم غالب (٣٤) -

وقد ترجمت أيضا إلى الأردية ، كما ترجمت رحلات ماركو بولو (٣٥) - وترجمت رحلة " ولفريد تسينجر " بعنوان فوق الرمال العربية ، وقد ترجمها ترجمة حرة وبتصرف محمد محمد عبد القادر ، وكذلك رحلة ناصر خسرو إلى الجزيرة العربية ومصر وترجمها الدكتور يحيى الخشاب وطبعت فى مصر كما ترجمت مرة ثانية وطبعت بالرياض (٣٦) -

أدب الرحلات نوع من أنواع النشر، فله دور كبير فى تطوير النشر الفنى فى العالم العربى وغيره كبلاد الهند و جمهوريات آسيا الوسطى.

الهوامش

- ١- شوقي ضيف: الرحلات ، ط دار المعارف -القاهرة عام ١٩٥٦ م ص٦
- ٢- شوقي ضيف: الرحلات، ص١٢ وهكذا جاء كتاب المسالك والممالك لابن حوقل (ت 4هـ) وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي (ق ٤هـ)، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي اكبر جغرافي بلاد المغرب والأندلس، وأثار البلاد وأخبار العباد للقزويني وغيرها. انظر المصدر السابق ص: ٢٦-١٢
- ٣- حسين محمد فهمي: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعارف رقم ١٣٨ الكويت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م ص ١٢١
- ٤- عيسى فتوح: الرحلات في التاريخ الإسلامي ، بمجلة التربية منظمة التربية والثقافة لدول الخليج ١٩٩١ م ص ١٩٠
- ٥- د. حسين نصار: أدب الرحلة، مكتبة لبنان ص ١٥
- ٦- المصدر السابق ص ١٦
- ٧- الحجازية، السياحية ، الرسمية ، الدراسية ، الأثرية ، الاستكشافية ، الزيارية ، السياسية ، العلمية ، المقامية ، الدليلية ، الخيالية ، والفهرسية والسفارية العامة . انظر حسين نصار: أدب الرحلة، ص ٢٠-١٩
- ٨- حسين نصار: أدب الرحلة ص ٣٤
- ٩- انظر الدكتور سمير عبد الحميد نوح في كتابه " :الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردى ، الفصول المتعلقة بالرحلة.
- ١٠- انظر الدكتور سمير عبد الحميد نوح في كتابه، الفصل الثامن " :الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردى.
- ١١- ويذكر هنا أن تاريخ أدب الرحلة يمتد إلى ما قبل ظهور المسيح بحوالى ٣٠٠ سنة كما انه من الملاحظ أيضا ان الامر يرجح إلى ما قبل ذلك فقديما المصريين سطوروا رحلاتهم بالكتابة والصور على جدران معابدهم.
- ١٢- انظر أمثلة في الرحلات العربية في كتاب أدب الرحلة لحسين نصار ص ٦٣
- ١٣- انظر الدكتور سمير عبد الحميد نوح في كتابه " :الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردى ،

الصفحات المتعلقة بالرحلة.

- ١٤- انظر حسين نصار أدب الرحلة ص ١١٦-١٢٥
- ١٥- حسين محمد فهميم: أدب الرحلات ص: ١٧
- ١٦- حسين نصار: أدب الرحلة ص: ١٢٨
- ١٧- اغناطيوس كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى: تعريب صلاح الدين عثمان هشام ومراجعة انيوريليان ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية ١٩٦١م ص ٣٣١
- ١٨- زكى محمد حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ط دار المعارف مصر ١٩٤٥ ص ١٨٠
- ١٩- حسين نصار: أدب الرحلة ص ١٣١
- ٢٠- حسين نصار: أدب الرحلة ص ١٣٢
- ٢١- حسين محمد فهميم: أدب الرحلات ص ٨٩-١١٧
- ٢٢- حسين محمد فهميم: أدب الرحلة ص ٩٠-٩١ وأيضا: الرحلات فى التاريخ الإسلامى مقال بمجلة التربية بقلم عيسى فتوح، مجلة محكمة تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد الخامس بعد المائة السنة ٢٢ يونيو ١٩٩٣م قطر الدوحة، ص: ١٩٠
- ٢٣- د. شوقى ضيف: الرحلات ص: ٤٢ وما بعدها
- ٢٤- عيسى فتوح: الرحلات فى التاريخ الإسلامى، مجلة التربية، ص: ١٩٢
- ٢٥- شوقى ضيف: الرحلات ص: ٥٦-٥٧
- ٢٦- نفسه ص: ٦٠-٦١
- ٢٧- عيسى فتوح: الرحلات فى التاريخ الإسلامى، مجلة التربية ص: ١٩٣
- ٢٨- عيسى فتوح: الرحلات ص: ١٩٤ وانظر أيضا شوقى ضيف: الرحلات ص ٩٥-١٢٢
- ٢٩- المصدر السابق ص: ١٩٤
- ٣٠- المصدر السابق ص: ١٩٥
- ٣١- نفسه ص: ١٩٥
- ٣٢- حسين محمد فهميم: أدب الرحلات ص: ١٠٦
- ٣٣- ترجمها مصطفى جواد طبعت فى بغداد سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م
- ٣٤- طبعت فى الرياض، دار اليمامة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م
- ٣٥- ط القاهرة ١٩٧٧م

أدب الرحلات عبر القرون المختلفة - دراسة تاريخية

١٨٩

- ٣٦- انظر ثبت أسماء الرحلات المترجمة بكتاب د. حسين نصار ، أدب الرحلة ص: ١٥٥-١٥٩
، فليراجع إلى ذلك بالتفصيل: الدكتور سمير عبد الحميد نوح في كتابه "الجزيرة العربية في أدب
الرحلات الأردى . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -عمادة البحث العلمى-
المملكة العربية السعودية ١٩٩٩م.

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆